﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ ﴾

يعنى : وعده حَقٌّ فى أنكم ستُردُّون إلى الله فى الآخرة ، فيحاسبكم ويُجازيكم ، المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، وهذا مبدأ معروف ومعمول به فى كل المجتمعات ، حتى البدائية منها ، وحتى الملاحدة يعملون بهذا المبدأ ، فيعطى المُجدَّ ويعاقب المقصِّر ، بل بعض هؤلاء يضعون قوانينَ للثواب والعقاب أصرم وأشدّ من قوانين الله ، مثل قوانين الإعدام والشنق ومصادرة الأموال .. إلخ .

والمجتمع لا يستقيم أمره إلا بهذا المبدأ ، فإن اختلَّ تطبيقه فَسَد المجتمع ، وأُحْبط الأفراد ، وعمّتْ الفوضى ، ولم لا والمحسن لا يأخذ ثمرة إحسانه ، والمجرم لا يُعاقب على جريمته ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ نربى فى الناس وازعَ الرغبة فى الخير ، والرهبة من الشر ؛ ليزداد المحسن فى إحسانه ، ويرعوى المسيىء عن إساءته .

وكيف لا يُقبل هذا المبدأ فى عالم مليء بالمظالم والتعديات والبطش والجبروت ، ثم لا يأتى الوقت الذى ينال فيه كُلٌّ ما يستحقه ؟

لذلك كثيراً ما أذكر ما دار بيننا وبين الشيوعيين الذين ينكرون مسألة البعث والحساب ، فكنتُ أقول لهم : لقد أخذتم أعداءكم وقتلتموهم ، وصادرتم أموالهم ، وفعلتم بهم الأفاعيل ؛ لأنهم فى نظركم غيَّروا مقاييس العطاء ، فما بال مَنْ فعلوا هذا وظلموا ، لكنهم أفلتوا منكم ، ولم تَطُلْهم أيديكم بعقاب ؟

وما بال الظالمين قبلكم وبعدكم ؟ أليس من الصواب القوْلُ بموعد

يجمع هؤلاء جميعاً للحساب ، حيث ينال كل منهم جزاءه ؟ أليس هذا الجزاء يسعدكم ويُثلج صدوركم حين ترونَ الظالم يُؤخذ بظلمه .

إذن : كان عليكم أنْ تؤمنوا بهذا اليوم ، لا أنْ تنكروه وتكفروا به، وهو يقوم على نفس المبدأ الذى تنادون به أنتم .

لذلك تلحظ أن النداء هنا لكل الناس : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ (٥) ﴾[فاطر] أى : وعده بالقيامة والبعث والحساب ، فهذه مسألة يُخاطب بها كل الناس ، ووَعْد الله حَقٌّ ؛ لأن الوعد يأخذ حقيَّة من الواعد ، ومن قدرته على إنفاذ وعده ، ومَنْ أقدرُ من الله ؟

إذن : ينبغى أن نثقَ فى الوعد إنْ جاء من الله سبحانه ، ولا نثق فى وعد مَنْ لا قدرةَ له فى ذاته .

وسبق أنْ بيَّنا أن الإنسان يَعد وينوى الوفاء وقت الوعد ، لكنه لا يملك أسباب الوفاء ، فربما طرأ عليه طارىء ، أو تغيَّرت الظروف ، فحالتْ بينه وبين الوفاء بوعده ؛ لذلك يُعلمنا ربنا أدباً عالياً فى هذه المسألة فى سورة الكهف ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف] فتعليق فعْلك على مشيئة ربك يُعفيك من الكذب إنْ عجزْتَ عن الوفاء ، فلَكَ أن تقول : نويتُ الوفاء ، لكن الله لم يشأ .

لذلك لا يُوصَف وعد بالحقية إلا وعد الله ؛ لأنه سبحانه وحده الذى يملك كل أسباب الوفاء بوعده . ولا يعوقه عن الوفاء شىء ، ولا يمانعه أحد .

وما دام أن وعد الله حَقٌّ ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا (٥) ﴾[فاطر] لا تخدعنّكم ؛ لأن الناس طبائع ، منهم مَنْ يغتر بثناء الناس عليه ،

ومنهم مَنْ يغتر فى ذاته ، وهذا هو الذى تغرُّه الحياة الدنيا بشهواتها ، فيعيش فيها بلا تكاليف وبلا التزامات ، كما فعل الكفار حين عبدوا الحجارة ، لأنها آلهة بلا تكاليف .

لذلك يحذرنا ربنا : لا تخدعنكم الدنيا عن شيء آخر أعلى منها هو الآخرة ، ويكفى ذَماً لهذه الحياة أن الله تعالى سماها دُنْيا ، والمقابل للدنيا حياة عليا هى الآخرة ، فالمعنى : لا تخدعنكم الدنيا عن مطلوب الله الذى يؤهلكم لحياة أخرى عُلْيا .

وسبق أنْ بيَّنا أن الدنيا بالنسبة للإنسان هى مدة بقائه فيها ، لا عمر الدنيا كله ، وعمرك فى الدنيا رغم قصَره هو عمر مظنون ، ونعيمك فيها على قدر حركتك فيها ، أما عمرك فى الآخرة فمتيقن ، ونعيمك فيها على قدر إمكانات الله ، وأنت مهما بلغتَ من نعيم الدنيا يُنغِّصه عليك أنْ يزول ، إما أن تتركه أنت وتموت ، أو يتركك هو فتظل فى الدنيا رغم غنَاك وتمتعك بها ، مُؤرَّقاً مشغولَ البال خائفاً من فوات النعمة ، أما فى الآخرة فالنعمة باقية دائمة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة . إذن : إنِ اغتررتَ بالدنيا فأجْرِ هذه المقارنة .

لذلك ، لما تكلَّم الحق سبحانه عن هذه الحياة وصفها بأنها دُنْيا ، ولما تكلم عن الآخرة قال : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت] فمعنى الحيوان أى : الحياة الحقيقية الباقية التى لا يهددها موْتٌ ولا فناء ، فيجب - إذن - أنْ تتنبه ، وأنْ تختار البديل الأرجح والأنفع لك ؛ لذلك نقول للذين اعتمدوا على الله وعاشوا فى كَنَف الله وعلى منهج الله نقول : إنهم عرفوا كيف يسوسون حياتهم ، فأخذوها من أقصر الطرق ، ونَصِف هؤلاء بالمكر ، والمراد المكر العالى المكر الحسن .

وفى موضع آخر ، يُبيِّن الحق سبحانه لنا حبائلَ الدنيا ووسائل

غرورها ، فيقول سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ [1] وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾ [آل عمران]

وقوله سبحانه : ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر] أى : الشيطان ، فالخداع والغرور إما أن يكون من النفس ذاتها بدون مؤثر خارجى ، وإما أنْ يوجد شيطان سُوء يغرُّك ويُوسوس لك ، إذن : أنت أمام عدوين ، إما الدنيا بشهواتها ، وإما الشيطان بهَمْزه ونَزْغه ، وقد حذرنا ربنا منه ، فقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

تعنى : تنبه لهذا العدو ، وكُنْ منه على حذر ، فعداوته لك مُسْبقة منذ أبيك آدم ، وكُرْهه لك واضح مُعْلَن ، فينبغى أنْ يكون لك معه موقف ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾

ما دام أنه عدو لك مُعْلَن العداء ، فلا يجوز لك أنْ تهادنه أو تستكين له وتطيعه ؛ لأنك حين تطيعه يستمرئ عداوته ضدك ، إذن : لا بُدَّ أنْ تعاديه ، وأنْ تُوقفه عند حدِّه ، كيف ؟ أضعف الإيمان أنْ لا تطيعه ، فإنْ أردتَ أن تكون أقوى منه فانتقم منه وغظْه بأنْ

(١) الخيل المسومة . أى : المرسلة للرعى أو المعلَّمة بعلامات . [القاموس القويم ١/٣٣٧] . وقال ابن عباس : المسوَّمة الراعية والمطهمة الحسان . وقال مكحول : المسومة الغرة والتحجيل . والمطهَّم من الخيل : الحسن التام ، كل شىء منه على حدته فهو بارع الجمال . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة : طهم] .

تتجه إلى مقابل ما يطلب منك ، فهو يأمر بالسوء ، فافعل أنت الحسن يأمرك بالشر ، فاجتهد فى الخير ، وكأنك تسخر منه وتُلقِّنه درساً لا يملك بعده إلا أنْ ينصرف عنك ؛ لأنك وظَّفْتَ عداوته لصالحك وانتفعتَ بها ، وهذا ما يغيظه .

وتستطيع أنْ تأخذ بهذا المبدأ مع أيِّ عدو آخر ، سواء أكان من شياطين الإنس أو شياطين الجن ، تستطيع أن تجعل من عداوته لك حافزاً على الخير وعلى عشق كل ما هو جميل ، فالعاقل مَن استفاد من عدوه أكثر من استفادته من صديقه .

وصدق القائل(١) :

عدَاىَ لَهُمْ فَضْلٌ علىَّ ومنَّةٌ ... فَلا أذهب الرحمَنُ عنِّى الأعَاديا
همُوا بَحَثُوا عَن زَلَّتى فَاجْتنبْتُها ... وهُمْ نافَسُونى فاكتسبْتُ المَعَاليا

فالمؤمن الحق يستطيع أن يستفيد من عداوة أعدائه فى نواحٍ كثيرة ، فهو مثلاً يعمل ويجتهد ليتفوق على عدوه ، لا أنْ يتكاسلَ حتى يكون دونه منزلةً ومرتبةً ، يجتنب المعايب وأفعال السوء حتى لا يعطى لعدوه فرصة أنْ يشمت فيه .. إلخ

كذلك نقول : إن بعض الصفات المذمومة فى الناس فيها جوانب خير لو تأملناها ، فالبخيل مثلاً مكروه من الجميع ، لكن حين تتأمل وضعه تجده هو الذى يُعين الكريم على كرمه ، كيف ؟ رأينا كثيراً فى القرى هذا النموذج : رجل كريم لا يساعده دَخْله على القيام

(١) القائل هو أبو حيان الأندلسى ، وهو محمد بن يوسف بن على ، ولد ٦٥٤ هـ ، سمع الحديث بالأندلس وإفريقية والإسكندرية ومصر والحجاز من نحو ٤٥٠ شيخاً ، كان صدوقاً حجة سالم العقيدة من البدع ، توفى بالقاهرة عام ٧٤٥ هـ عن ٩٠ عاماً . والبيتان من قصيدة له فى ديوانه ، وهو ينتمى إلى العصر المملوكى .

بمتطلبات هذا الكرم وتبعاته من السماحة والبذل والعطاء والمجاملة .. إلخ ، فكان كل فترة يبيع قطعةَ أرض لينفق منها ، فلمَنْ يبيع الكريم أرضه إذا لم يكن هناك البخيل الممسك ؟ فكأن البخيل يعين الكريم على كرمه .

وإذا كان الكريم يأسرك بكرمه وتدان له بجميله ، فليس للبخيل جميل عليك ، ولست أسيراً له في شيء ؛ لذلك عَبَّر الشاعر عن هذا المعنى ، فقال :

جُزِىَ البخيلُ علَىَّ صالحةً ... مِنِّى لخفَّتِه على ظَهْرِى

يعنى : ليس له جميل عندى يجعلنى عبداً لإحسانه .

ومعنى ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا (٦) ﴾[فاطر] أن تشحن كل طاقاتك وكل مواهبك لتربِّى فيك المناعة اللازمة ضد إغراءاته ووسوسته لك بالسوء ، فإنْ أردتَ الارتقاء في مناهضته ، فزدْ من الحسنات التي يكرهها ، فإنْ جاءك في الصلاة ليفسدها عليك فَغظْه بأنْ تخشع فيها ، وتزيد في تحسينها .

﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾[فاطر] يعنى : أصبح له حزب وجماعة يحاول أنْ يُكثِّرها ؛ لذلك قال تعالى في موضع آخر: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ [المجادلة]

ومعنى حزب : جماعة تعصَّبوا لفكرة يعملون من أجلها في مقابل جماعة أخرى لهم مناهضات ، ويعملون هم أيضاً لفكرة تخدمهم .

والعلَّة في أنه يدعو حزبه ليكونوا كثرة فيكثر المتخبطون في منهج الله والخارجون عنه في مقابل حزب الإيمان والطاعة ، هذه هي العلة .

أما قوله تعالى ﴿ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾[فاطر] فاللام هنا لام العاقبة ومعناها : أنك تريد الشيء لعلة ، لكن تنتهي إلى علَّة أخرى ضد مطلوبك .

وقوله : ﴿ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾[فاطر] دلَّ على أن بينهم وبين النار أُلْفة ، وأنها تريدهم وتعشقهم حتى صارتْ بينهما مصاحبة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه حزبَ الشيطان يذكر الحكم عليه ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٧) ﴾[فاطر] وفي المقابل ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) ﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾

الأسلوب في ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (٨) ﴾[فاطر] أسلوب استفهام ، لكن لم يذكر المقابل له ، وتقديره هل يستوي ، ومَنْ لم يُزين له سوء عمله ؟

والحق سبحانه لم يذكر جواباً لأنه معلوم ، ولا يملك أحد إلا أن يقول لا يستويان ، لأن الناس منهم مَنْ يعمل السيئة ، ويعلم أنها سيئة ، ويكتفى بها لا يتعداها ، ومنهم مَنْ يتعدَّى فيفعل السيئة ويدَّعى أنها حسنة ، وهذا مصيبته أعظم لأنه ارتكب جريمة حين فعل السيئة ، وارتكب جريمة أخرى حين ادعى أنها حسنة ، هذا معنى : ﴿ فَرَآهُ حَسَنًا ﴿٨﴾ ﴾[فاطر] ، وهذا اختلال فى الرؤية وضلال .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴿٨﴾ ﴾[فاطر] وهذه الآية وقف عندها كثيرون ، يقولون : إنْ كان الله هو الذى يهدى ، وهو الذى يُضل . فلماذا يُحاسب الإنسان ؟ ولا بُدَّ لتوضيح هذه المسألة أنْ نُبين معنى يهدى ويُضل . يهدى يعنى : يدلُّه على طريق الخير ويرشده إليه ، وهذا الإرشاد من الله لكل الناس ، فمَنْ سمع هذا الإرشاد وسار على هُدَاه وصل إلى طريق الخير ، فكان له من الله العون وزيادة الهدى ، كما قال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

أما الذى أغلق سمعه فلم يسمع ولم يَهْتَد فضلَّ الطريق وانحرف عن الجادة ، فأعانه الله أيضاً على غايته ، وزاده ضلالاً ، وختم على قلبه ليكون له ما يريد ، فلا يدخل قلبه إيمانٌ ، ولا يخرج منه كفر ، وهؤلاء قال الله فيهم : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة]

لذلك يقول تعالى عن قوم ثمود :﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت]

فمعنى ﴿ هَدَيْنَاهُمْ ﴾ يعنى : دللناهم وأرشدناهم لطريق الخير ،

ولكنهم رفضوا هذه الدلالة وعارضوا الله فضلُّوا فأضلهم الله . يعنى : زادهم ضلالاً .

وسبق أنْ أوضحنا هذه القضية وقلنا : هَبْ أنك تريد أنْ تذهب إلى مكان ما ، ووقفتَ عند مفترق الطرق لا تدرى أيهما يُوصِّلك إلى غايتك فذهبتَ إلى رجل المرور تسأله أين الطريق ، فدلَّك عليه فشكرته وعرفتَ له جميله ، فلما رآك مُطيعاً له ، شاكراً لفضله قال الله : لكن أمامك فى هذا الطريق عقبة سأسير معك حتى تتجاوزها ، هكذا يعامل الحق سبحانه المهتدين : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وقد خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ (٥٦) ﴾ [القصص] وخاطبه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى] فأثبت له ﷺ الهداية بمعنى الإرشاد والدلالة ، لكن نفى فى حقِّه الهداية بمعنى المعونة على الهدى ، فالذى يُعين هو الله .

ثم إن الحق سبحانه لم يترك هذه المسألة هكذا ، إنما بيَّن مَنْ يهديه ومَنْ يُضلُّه ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾ [المائدة] وقال : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ [الصف] وأىُّ هداية للإنسان بعد أنْ كفر بالله ، وفَسَق عن منهجه ، وأفسد فى البلاد ، وظلم العباد ؟

وقوله تعالى : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ (٨) ﴾ [فاطر] يعنى : لا تُهلك نفسك حسرة على عدم إيمانهم ، وهذا المعنى شرحه الحق سبحانه فى قوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

فرسول الله ﷺ كان حريصاً على هداية قومه ، يألم أشدَّ الألم حين يشرد أحد منهم عن طريق الإيمان ؛ لذلك قال تعالى عن نبيه محمد : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

ثم يقول سبحانه مُسلِّياً رسوله ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ [فاطر] يعنى : لا تَخْفى عليه خافية من أفعالهم ، وسوف يجازيهم ما يستحقون من عقاب على قَدْر ما بدر منهم من إعراض ، فاطمئن ولا تحزن .

بعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى بعض الآيات الكونية الخاصة بنعمه سبحانه على الخَلْق ، فيقول تعالى :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) ﴾

معنى : يرسل الرياح يعنى : يحركها ، وبتحريك الرياح يتم استيعاب خير الوجود كله ، ألاَ ترى أن الريح إذا سكنتْ يتضايق الإنسان ويحاول تحريكها بنفسه بيده أو بالمروحة مثلاً ؛ لأن حيِّزك فى التنفس لا يتم إلا بتحريك الهواء ، وتغيير ثانى أكسيد الكربون ليحل محلَّه الأكسوجين ، ولا تتم هذه العملية إلا بتحريك الهواء ؛ لذلك يقولون : إذا لم يمرّ عليك الهواء فمُرّ أنت عليه . يعنى : حرِّكه أنت .

ونتيجة حركة الرياح إثارة السحب ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا (٩) ﴾ [فاطر] يعنى : تُهيِّجه وتُحركه من أماكنه ، بحيث يذهب بعد تجمُّعه إلى حيث أراد الله أنْ ينزل المطر ، إذن : حركة السحاب ليست ذاتية ، وإنما

تابعة لحركة الرياح ، وهذه المسألة تساعدنا فى فهم قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٨٨) ﴾ [النمل]

فالجبال التى نحسبها ثابتة هى فى الحقيقة تمر وتتحرك كحركة السحاب ، وكما أن السحاب لا يمر بذاته ، إنما بحركة الرياح ، كذلك الجبال لا تمر بذاتها ، إنما بحركة الأرض والجبال ثابتة على الأرض كالأوتاد ؛ لذلك تتحرك بحركتها : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ (٨٨) ﴾ [النمل]

البعض لم يفطن إلى حركة الأرض التى تتبعها حركة الجبال ، فقال فى قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٨٨) ﴾ [النمل] أن هذا فى الآخرة ، لكن أين هى الجبال فى الآخرة والله يقول عنها : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ[1] (٩) ﴾ [المعارج] ثم ، كيف يمتنُّ الله عليها ويحتج ببديع صُنْعه فى حركة الجبال فى الآخرة ، حيث لا تكليف ، ولا موضع لتحنين القلوب وعَطْفها إلى الإيمان .

هذا عن حركة الرياح ، أما عن سكونها ، فيقول تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ[2] عَلَىٰ ظَهْرِهِ (٣٣) ﴾ [الشورى] والمراد : السفن التى تُسيِّرها الرياح ، فإنْ قُلْتَ : فهل يظل لهذه الآية هذا المعنى بعد التطور الذى طرأ على السفن ، وبعد أنْ تلاشتْ القلاع وحَلَّ محلها الآلات التى تُسيِّر السفن دون حاجة إلى حركة الهواء ؟

---

(١) العهن : الصوف المصبوغ بأى لون أو بألوان مختلفة ، قال تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) ﴾ [المعارج] كالصوف ذى الألوان المختلفة . [القاموس القويم ٢/ ٤٠] .

(٢) ركد الماء والريح : هدأ وسكن . وركدت السفينة : هدأت بعد اضطرابها . أو سكنت حركتها لسكون الريح التى تسيِّرها . [القاموس القويم ١/ ٢٧٤] .

نقول : نعم ستظل الآية تحمل هذا المعنى إلى ما شاء الله ؛ لأن الاختراعات الحديثة لم تفاجىء خالقها عز وجل ، ومَنْ قال : إن الريح هو الهواء ؟ الريح هو القوة أياً كانت ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (٤٦) ﴾ [الأنفال] يعنى : قوتكم أيّاً كانت قوة هواء ، أو قوة كهرباء ، أو قوة بخار ومحركات .. الخ

ونلحظ فى أسلوب هذه الآية أن الفعل ﴿ أَرْسَلَ (٩) ﴾[فاطر] جاء فى صيغة الماضى ، لكن (تثير) فى صيغة المضارع ، ولم يقل سبحانه : فأثارت سحاباً ، قال : أرسل يعنى : أمر أنْ ترسل ، فهذه مسألة انتهت وفُرغ منها ، أما إثارة السحاب وتحريكه فمسألة مُتجدِّدة مستمرة فى كل لحظة ، فناسبها المضارع الدال على الحال والاستقبال .

أو : أن المعنى ﴿ وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا (٩) ﴾[فاطر] جاء فى الماضى ؛ لأن الكلام عن الغيب ، والاسم الظاهر غيب وهو لفظ الجلالة ، ثم انتقل من الغيب فى ﴿ أَرْسَلَ الرِّيَاحَ (٩) ﴾[فاطر] إلى مقام المتكلم ، فقال ﴿ فَسُقْنَاهُ (٩) ﴾[فاطر] كأن الله يلفتك بالنعمة إلى غيب هو الله تعالى ، فحين تستحضر أنه الله الذى فعل أصبحْتَ أهلاً لمكالمة الله لك .

ومثال ذلك ما قُلْنا فى سورة الفاتحة : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾[الفاتحة] هذا كله غيب إلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة]

ولم يقُلْ : إياه نعبد لينقلك من الغيب إلى الخطاب المباشر معه سبحانه ؛ لأنك أصبحتَ أهلاً لأنْ تخاطبه ويخاطبك بعد أنْ آمنتَ بالحيثيات الأولى فى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ ﴾ [الفاتحة]

ومعنى ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ۝ ﴾[فاطر] يعنى : سُقْنا السحاب ، أو سُقْنا الماء بعد نزوله فى جداول وأنهار إلى الأرض التى لا نَبْتَ فيها ، والتى يمكن أن تنتفع به ، وهذا أدلّ على قدرة الله ، وتأمل مثلاً ماء النيل الذى يروى السودان ومصر أين نزل ؟ وهذا دليل على أن رزقك سيأتيك مهما بَعُد عنك مصدره .

فإذا ما استقر الماء فى الأرض كانت النتيجة ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۝ ﴾[فاطر] يعنى : أحييناها بالنبات ، ثم يجعل الحق سبحانه من نِعَم إحياء الأرض الميتة دليلاً على نعمة أخرى موصولة فى الآخرة ، فيقول سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ۝ ﴾[فاطر] يعنى : البعث يوم القيامة وإحياء الموتى من قبورهم .

فَخُذْ مما تشاهد من إحياء الأرض الميتة دليلاً على صدق ما غاب عنك ، فكما أن الماء ينزل على الأرض الميتة فَيُحييها ، كذلك حين تنزل الروح على مادة الإنسان المدفونة فى الأرض يحدث لها النشور والبعث ، وتدبّ فيها الحياة .

وسبق أنْ بيَّنا أن العلماء لما حللوا جسم الإنسان وجدوه مُكوَّناً من ستة عشر عنصراً . أولها : الأكسوجين . وآخرها : المنجنيز . وهى نفسها عناصر التربة التى ينمو فيها النبات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾

التأبِّي على الرسالات تأبٍّ على أن يكون المؤمن الذي يُكلَّف بتكليفات تبَعاً لرأى غيره وطَوْع أمره ، والرسول ما جاء إلا ليقول لنا (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، وبعض الناس يرى في هذه الطاعة خَدْشاً لكرامته وعزته ، فهو يريد أنْ يكون الأعلى الذى لا يأمره أحد ولا ينهاه ، وهؤلاء الذين تتحدث عنهم الآية يريدون أن تكون لهم العِزَّة فى نفوسهم .

والحق - سبحانه وتعالى - هنا يُصحِّح لهم معنى العزة ويُبيِّن غباءهم ، فيقول سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] أى : العزة الحقيقية لا المدَّعاة : ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] فالعزة الحقيقية ألاَّ تكون مغلوباً ولا مقهوراً لأحد ، وهذه العزة لا وجودَ لها إلا فى رحاب الله ، فمهما بلغ الإنسانُ فى الدنيا من القوة والجبروت لا بُدَّ أنْ يُغلب ، ولا بُدَّ أنْ يقهره الموت ، فإنْ كنتَ مُغْرماً بعزة لا تزول ، فهى فى جنب الله .

لذلك فالله تعالى يُعلِّمنا الحكمة ، فيقول : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : أنا أعلم بك وأعلم بضعفك ، وأنك فى حاجة إلى مَنْ تتوكل عليه ليقضى لك الأمور التى فوق طاقتك ، فإياك أنْ تلجأ إلى غيرى ، فأنا الباقى الذى لا يموت ، فإنْ توكلْتَ على

ضعيف مثلك ، فربما مات قبل أنْ يقضى لك حاجتك ، كذلك مَنْ أراد العزة فليكُنْ فى حضن الله يعتزُّ بعزَّته ، ويتقوَّى بقوته ، ومَنْ كان فى حضن الله يخلع الله عليه من صفاته ويفيض عليه .

لذلك سيدنا رسول الله يعطينا هذا الدرس ، وهو فى الغار ، ومعه الصِّدِّيق - رضى الله عنه - فيقول الصِّديق : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فيقول سيدنا رسول الله وهو واثق بربه : « يا أبا بكر ما بالك باثنين الله ثالثهما »[1] وحكى عنه القرآن قوله :

﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا (٤٠) ﴾ [التوبة]

فهذه الطمأنينة التى ملأتْ قلب رسول الله منشؤها معية الله له ولصاحبه ، وهذه المعية تقتضى أنْ يخلع الله عليهما من صفاته سبحانه ، فإذا كان الله تعالى لا يُرى ، فمَنْ كان فى معيته كذلك لا يُرى.

ومعنى ﴿ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠) ﴾[فاطر] يعنى : كل ألوان العزة ، وهذه المسألة من المسائل التى تكلَّم فيها المستشرقون ، يلتمسون فيها مأخذاً على كلام الله ، يقولون : إن الله يقول﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠) ﴾[فاطر] وفى آية أخرى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [المنافقون]

ولا تعارض بين الآيتين ؛ لأن العزة فى الأصل لله ، وعزَّة الرسول من التحامه بالعزيز ، وعزة المؤمنين من التحامهم بعزيز العزيز ، فهى عزة موصولة من الله تعالى لمَن اعتزَّ به ، وأول مَن اعتزَّ بالله رسوله ، ثم المؤمنون به .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم فى صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، بلفظ : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» .

ثم يقـول سبحـانه : ﴿ إِلَيْـهِ يَصْعَـدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] دائماً نخاطب الله على جهة العلو ، مع أنه سبحانه فى كل مكان ، وليس له مكان ، لذلك يحـتج البعض على هذه المـسألة فـيقـول : كيف أن الله ليس له مكان ، وسيـدنا رسول الله لما أراد الله أنْ يُكلِّمه أصـعده إلى السماء السابعة ؟

نقـول : كان الصـعـود لمكان الرائى لا لمكان المـرئى ، فـالرائى لا يرى إلا من هذا المكان ، فـمثلاً لو أننا سـمعنا الآن ضجـة خارج المسجد ، وهذه النافذة التى تُطل على هذه الضجة عالية ، فماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تعرف مـا يدور بالخارج ، لا بُدَّ لك أنْ تصـعد هذا العلو لترى ما يحدث ، فالأحداث هى هى ، لكن مكان الرائى يختلف .

ومعنى ﴿ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] هذا وصف عام لـكل كلام يدلُّ على منهج خـير ، وقد أعطانا القـرآن مثالاً لذلك فـى قوله سبـحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

وقد حاول العلماء تحديد هذه الكلمة ، فقالوا هى : كلمة لا إله إلا الله وسـبحـان الله والحـمـد لله ولا قوة إلا بالله ، ولكن هذا الـتحـديد يُضيِّق المعنى الواسـع الذى أراده الله تعالى منها ، والأصوب أن نقول الكلمة الطيبة : كل كلام يؤدى إلى خير .

وقوله تـعالى : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] بعد أن تكلم سبحـانه عن صعود الكلم الطيب يتكلم عن رفع العـمل الصالح ؛ لأن الإنسان قـد يتكلم بالكلمـة الطيبة دون أنْ تُؤدى مطـلوبها ، ودون أنْ يترجمها إلى عمل ، وربما قالها نفاقاً مثلاً ، كالذين قالوا لا إله إلا الله

نفاقاً وفراراً من القتل ، ومع ذلك تصعد إلى الله ، فيقول الله احموه بهذه الكلمة دنياه ، ولا تتعرضوا له ما دام نطق بها ، إنما ليس له عليها جزاء في الآخرة ؛ لأن الجزاء يتأتَّى من العمل الذى يخدم مدلول الكلمة ، فالعبرة إذن بالعمل والعمل الصالح ، فهو الذى يُرفع إلى الله ، ويحميك فى الدنيا ، ويحميك فى الآخرة ، ويجمع لك الخيرين .

ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى المقابل : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَـٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] الفعل مكر يتعدى بحرف الجر نقول : مكر بفلان ومكَره يعنى : خدعه ويتعدَّى بنفسه كما فى ﴿ يمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] وأصلها يمكرون المكْرات السيئات ، فهى وصف لمصدر مأخوذ من مادة الفعل مثل : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿١٢٢﴾ ﴾[النساء] أى : الأعمال الصالحات . أو مكر : فعل مكراً ، فيكون المعنى : والذين فعلوا السيئات .

ثم يبين سبحانه جزاء المكر السيء : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] لماذا ؟ لأنك حين تمكر ، كأنك تريد أنْ تسرق شيئاً من الله ، وتظن أنه لن يدرى بك ، وغفلتَ أنك تُبيِّت المكر سراً ، وهو سبحانه يعلم السِّر والنَّجْوى ، وأنك حين تمكر وحين تُبيِّت تُبيِّت على قدر إمكاناتك ، وربك عز وجل كذلك يمكر ويُبيِّت على قدر إمكاناته ، وقدرته تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

لذلك يبوء هذا المكر بالخسران وبالبوار ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَكْرُ أُولَـٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] فهو مكْر بائر ، كالأرض البَوَار التى لا تنبت ولا تنتج ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

﴿كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨)﴾ [إبراهيم]

فهذا المكر الذى ظنه صاحبه ينفعه ، ويرفعه على خَصْمه ، ويجعل نفسه عالية عليه ، إذا به يبور ، ولا يؤتى ثماره ، ولَيْته يبور وتنتهى المسألة ، إنما ينقلب عليه ويجرٌ على صاحبه العذاب الشديد.

ومعنى ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٠)﴾[فاطر] اللام تفيد الملكية ، فهنا قلب يعنى : لهم عذاب أى : استحقوه وكأن العذاب يحرص عليهم كما يحرص الإنسان على ما يملك ، فهو عذاب ملازم لهم لا ينفك عنهم .

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)﴾

تعرضت هذه الآية لقضية الخَلْق الأول للإنسان الخليفة ، وهذا الخَلْق كان له مراحل ، فالإنسان الأول وهو آدم عليه السلام خُلق خَلْقاً أولياً من مادة الأرض ، وهى التراب الذى يُخلط بالماء ، فصار طيناً ، هذا الطين مَرَّ بأطوار عدة ، فالطين إنْ تركْتَه حتى يعطن وتكون له رائحة فهو الحمأ المسنون ، فإنْ تركته حتى يجفَّ ويتماسك فهو الصلصال ، فهذه - إذن - أطوار للمادة الواحدة التى صَوَّر الله منها آدم ، ثم نفخ فيه من روحه ، وهذا هو الخَلْق الأول الذى أخذ الله منه حواء ، ومنهما يتمُّ التناسل والذرية .

وقبل أنْ يتكلم الحق سبحانه عن خَلْق الإنسان تكلَّم عَمَّا خلقه الله للإنسان قبل أنْ يُوجد ، فتكلَّم سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١)﴾[فاطر] ثم تكلم عن الملائكة

الذين ينزلون بالوحى إلى الرسل من البشر ، ثم أنزل من السماء ماءً به تنبت الأرض .

هذه كلها مُقوِّمات حياة الإنسان ، أوجدها الله له قبل أنْ يُوجده هو ، وضمن له مُقومات حياته المادية والمعنوية الروحية ، المادية بالقوت طعاماً وشراباً وهواءً ، والروحية بالمنهج والقرآن ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ ﴾ [الرحمن]

فالإنسان خُلق لغاية ، كالصانع يحدد غاية الشيء المصنوع قبل أنْ يبدأ فيه ، وقُلْنا : إن الذى صنع (التليفزيون) أو الثلاجة لم يصنعها ثم قال : انظروا فيمَ تُستخدم هذه الآلة ، إنما قدَّر غايتها ، وحدَّد هدفها قبل صناعتها ، كذلك الحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان قدَّر حركته فى الحياة وما يسعده فيها ، فوضع له منهج القرآن قبل أنْ يُخلق ، ثم جاء خَلْق المادة بعد وَضْع المنهج .

والحق سبحانه حينما يتكلَّم عن خَلْق الإنسان ، يقول : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ۝١١ ﴾[فاطر] فجاء الأسلوب كأنه يتحدث عن غائب ، ولم يقُلْ سبحانه أنا خلقتُكم ، فكأننا نقول : الله خلق الإنسان من تراب ؛ ذلك لأن وسائل الخطاب بين متكلم ومخاطب تأتى على ثلاث صور : ضمير المتكلم أنا ، أو ضمير المخاطب أنت ، أو ضمير الغائب هو .

فالمتكلم حين يتكلم يقول : أنا فعلتُ . من الجائز أن يُكذَّب ، فإنْ خُوطب : أنت فعلت . من الجائز أنْ يُنافق ، لكن إذا جاء الأسلوب بصيغة الغائب : هو فعل ، فقد برئنا من الادعاء فى المتكلم ، ومن النفاق فى المخاطب .

وحين نقول هو خلق يعنى : ليس هناك غيره ، وسبق أن قلنا :

إن ضمير الغائب (هو) لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى .

وإذا استقرأتَ آيات الخَلْق فى القرآن الكريم تجدها بأسلوب الغيبة فى مائة وسبع آيات ، بداية من قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا (٢٩)﴾[البقرة] وآخره سورة الفلق :﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)﴾[الفلق] وبأسلوب المتكلم فى ست وسبعين آية ، مثل :﴿ .. إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ .. (١٣)﴾ [الحجرات]

وبأسلوب المخاطب فى أربعة مواضع هى : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ (١٩١)﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف]

وقوله : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ [الإسراء]

فأسلوب الغيبة هو أكثر هذه الأساليب ؛ لأن الحديث عن غائب يخلو من ادعاء ، ويخلو من نفاق المواجهة ، أو نفاق الخطاب .

لكن ، ما معنى الخلق ؟ قال العلماء : الخَلْق إيجاد من عدم لحكمة أو لغاية مُسْبقة ، لا مجرد الإيجاد من عدم ، كيف ؟ أنت إذا أخذت قطعة كبيرة من طين جاف ورميتَها على الأرض ، فإنها تتفتتْ قطَعاً مختلفةَ الأشكال ، وربما وجدت منها على شكل هلال ، وأخرى على شكل نجمة ، وأخرى على شكل وجه إنسان أو حيوان .

هذا يُعد إيجاداً ، لكن لا يُعَدُّ خَلْقاً ؛ لأن الخَلْق إيجاد مقصود لغاية مقصودة ، وحكمة مرادة ، وهذه مهمة الخالق وحده سبحانه .

فإنْ قلتَ : كيف والله تعالى يثبت لنا خَلْقاً فى قوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

قلنا : إن الخالق سبحانه يُقدِّر مجهودات البشر ، ولا يبخسهم حقوقهم ؛ لذلك يثبت لهم المشاركة فى الخَلْق مع الفارق الواضح بين خَلْق الله وخَلْق غيره ، فإذا وُصف الإنسانُ بأنه خالق ، فالله أحسن الخالقين ؛ لأنه سبحانه يخلق من عدم ، وأنت تخلق من موجود ، وخَلْقك يثبت على حالة واحدة ، ويجمد عليها ، أما خَلْق الله فيتطور وتدبّ فيه الحياة فيتغذّى وينمو ويتناسل ..إلخ .

ومثَّلْنا لذلك بصانع الزجاج يأخذ مثلاً الرمل المخلوق لله ، ثم يعالجه بطريقة معينة ، ويُحوِّله إلى زجاج ، نعم أنت خلقْتَ شيئاً ؛ لأن هذا الكوب لم يكُنْ موجوداً ، فأوجدته ، لكن من مادة موجودة مخلوقة لله ، وعقل فكّر هو من مخلوقات الله ، ونار صهرتْ هى من خَلْق الله .

ثم إنك لا تستطيع أنْ تمنح هذا الكوب صفة الحياة ، فينمو مثلاً ، أو يتكاثر ، إذن : إن أثبتَ الله لك خَلْقاً فهو سبحانه أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ** (١١) ﴾[فاطر] وفى مواضع أخرى قال : ﴿ **مِّن طِينٍ** (٢) ﴾ [الأنعام] وقال ﴿ **مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** (٢٦) ﴾ [الحجر] وقال : ﴿ **مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ** (١٤) ﴾ [الرحمن] ولا تعارضَ بين هذه الأقوال ؛ لأنها أطوار للمادة الواحدة كما بينَّا ، كالثوب الذى تلبسه تقول : هذا الثوب من القطن ، أو من الغزل ، أو من النسيج ، فهى مراحل تمر بها المادة الواحدة .

فليس فى هذا تناقض فى المراحل ، إنما التناقض فى أنْ يكون الشىء مرتبة واحدة ، ثم تجعله مراتب ، إنما هذه المسألة مراحل للمرتبة الواحدة ، كالطفل يصير غلاماً ، ثم شاباً ، ثم رجلاً ، ثم

كَهْلاً.. إلخ كلها مراحل لإنسان واحد .

الحق سبحانه حكم فى كونه بأشياء ، ونهى العقل أنْ يفكر فى أشياء ، قال : أنا خلقتُ لك الكون والمادة ، وضمنتُ لك مُقوِّمات حياتك ، فإنْ أردتَ أن تُرقِّى نفسك فأعمل عقلك فى المادة المخلوقة لله ، واستنبط منها على قَدْر إمكاناتك ، لكن لا تشغل بالك بأمرين لا جدوى من التفكير فيهما ، هذان الأمران هما خَلْق السموات والأرض وخَلْق الناس ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١ ﴾[الكهف]

فخَلْق السموات والأرض وخَلْق الإنسان مسألة لم يشهدها أحد منكم ، ولم يكُنْ مع الله سبحانه معاون يخبركم بما حدث ، لكن احذروا سيأتى فى المستقبل مُضلُّون يُضلُّونكم فى هذه المسألة ، يقولون لكم - كما يقول المضلون الآن - إن السموات والأرض كانتا قطعة واحدة ملتهبة ، وحدث لها كذا وكذا ، أو أن الإنسان أصله الأول قرد تطور إلى إنسان ، احذروا هؤلاء ، ولا تأخذوا معلوماتكم إلا ممَّنْ شهدها ويعلمها ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

لكن الحق سبحانه خلق العقل آلة للتفكير ، وجعل له منافذ يصل من خلالها إلى الحقيقة ، والاستدلال بما رآه على ما غاب عنه ، فعلى العقل أنْ يتأمل ما يراه ويستدل به على ما لا يراه .

نحن لم نشهد عملية الخَلْق ، لكن شهدنا عملية الموت ، والموت نَقْضٌ للخَلْق ، كما أن الهدم نَقْضٌ للبناء .

فهذه قضية فلسفية للعقل فيها دور ، فأنت حين تريد بناء عمارة مثلاً من عشرة أدوار تبدأ ببناء الدور الأول ، لكن إنْ أردتَ هدمها

تبدأ بالدور العاشر ، فالهدم على عكس البناء ، كذلك الموت نقيض الحياة .

فالذى لم نشاهده من عملية الخَلْق أخبرنا الله به فى كتابه ، فقال : خلقتكم من تراب صار طيناً ، ثم صار الطين حمأ مسنوناً ، وصار الحمأ المسنون صلصالاً كالفخار ، تشكَّل على صورة الإنسان ، ثم نفخ فيه اللهُ الروحَ فدبَّتْ فيه الحياة .

ونحن شاهدنا الموت ورأيناه يأتى على عكس عملية الخَلْق ، فأول شىء فى الموت أنْ تفارق الروحُ الجسدَ ، فيتصلَّب حتى يكون كالفخار ، ثم يرمَّ ، وتتغير رائحته كأنها الحمأ المسنون ، ثم تمتصُّ الأرضُ ما فيه من مائية ليعود إلى تراب وفُتَات يختلط بتراب الأرض، ويعود إلى أمه التى جاء منها .

إذن : خُذْ مما شاهدتَ دليلاً على صدق ما أخبرك الله به مما لم تشاهده .

الحق - سبحانه وتعالى - حينما تكلَّم عن الخلق تكلم عن مرحلتين : الأولى : خَلْق الإنسان الأول آدم عليه السلام من طين ، ولكى يتم التكاثر لعمارة الأرض كانت المرحلة الثانية بأنْ خلق له زوجه ، فقال :

﴿ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١٨٩) ﴾ [الأعراف]

والظنُّ يتسع فى هذه المسألة ، فيصح أنه سبحانه أخذ قطعة من آدم وخلق منها حواء ، ويصح أنْ تكون هذه القطعة كذلك كانت من الطين ، لكن اكتفى بالتشريع الأول للرجل ، ومن آدم وحواء أنشأ النسل ، وتم الاستخلاف فى الأرض .

ولكى نخرج من المتاهة فى هذه المسألة نقول : قوله تعالى

﴿ وخلق منها زوجها (١) ﴾ [النساء] يعنى : من جنسها ، من جنس خَلْقها ، كما قال سبحانه : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم (١٢٨) ﴾ [التوبة] يعنى : من جنسكم .

لكن ، أيخلق الله هذا الخَلْق ، ويستخلف خليفته فى الأرض ، ثم يتركه دون أنْ يُمدَّه بالمنهج الذى حكم حركة حياته ؟ لا ، لا بُدَّ أنْ يُنزل له المنهج ؛ لأن معنى الخلافة تقتضى أنْ يُوجد هذا المنهج .

والحق سبحانه حين يُملِّك خليفته أشياء تأتمر بأمره ربما غرَّه ذلك الملك فقال له : اذكر أنك لستَ أصيلاً ، وأنك خليفة ، وطالما تتذكر أنك خليفة فلن تطغى ، إنما الذى يُطغيك أن تظنَّ أنك أصيل فى الكون ، والأصيل فى الكون هو الذى يحفظ ما وُهب له ، هو الذى لا يمرض ولا يموت ، ولا يوجد معه مَنْ هو أقوى منه . إذن : تذكَّر أنك مُسْتخلف ، وما دُمْتَ مستخلفاً فعليك أنْ تنفذ أوامر مَن استخلفك .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الخَلْق الأول من تراب وخَلْق الزوجة ، يُحدِّثنا عن الخَلْق العام الذى سيأتى منه البشر جميعاً بعد آدم وحواء ، وبالتزاوج يتم الخَلْق عن طريق النطفة ، فيقول سبحانه ﴿ ثُمَّ من نُّطْفَةٍ ثُمَّ جعلكُمْ أَزْوَاجًا (١١) ﴾ [فاطر]

وفى موضع آخر فصَّل مراحل النطفة ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فِإنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ (٥) ﴾ [الحج]

وأول زواج تم بين أولاد آدم تمَّ بالتباعد ، فابن هذه البطن يتزوج أخته من بطن أخرى ، وهكذا كان التباعد بحسب زيادة النسل قَدْر المستطاع ، ومسألة التباعد هذه هى التى أدتْ إلى أول جريمة

قَتْل فى البشرية ، وهى مسألة قابيل وهابيل . فلما اتسعتْ الدنيا ، وكَثُر الناس مُنِع زواج الأخت والخالة والعمة.

وقد أثبت العلم أهمية التباعد فى الزواج ، وأن زواج الأقارب يثمر نسلاً أضعف من زواج الأباعد ، حتى فى الزراعة أثبتوا أن زراعة الحبوب المستخرجة فى نفس أرضها يعطى محصولاً أقلَّ ؛ لذلك لجئوا فى الزراعة إلى عملية التهجين .

والنبى ﷺ يحثُّ على هذا التباعد ، فيقول : « اغتربوا لا تضووا[1] »[2] يعنى : لا تتزوج شديدة القرابة منك ؛ لأن الأقارب خصائص وجودهم واحدة والدم واحد ، أما فى الاغتراب ، فالخصائص مختلفة والدم مختلف ؛ لذلك يأتى النسل أقوى ؛ لذلك فطن الشاعر العربى إلى هذه المسألة ، فقال[3]:

أُنذِرُ مَنْ كَانَ بعيد الهَمِّ ... تَزْويج أولادِ بناتِ العَمّ

فليسَ بنَاجٍ من ضَوى وسَقَم ... بأبى وإنْ أَطْعمتَهُ لا يَنْمي

وقد لاحظوا ضَعْفَ النسل فى الأُسَر التى تزوج أولادها من الأقارب ، ومدحوا الاغتراب ، فقال الشاعر :

---

(١) ضوى يضوى ، هو الولد يخرج ضعيفاً . ورجل ضَاوٍ إذا كان ضعيفاً . ومعنى لا تضووا ، أى : لا تأتوا بأولاد ضاوين . [لسان العرب - مادة : ضوا] .

(٢) مما ورد فى هذا ما ذكره أبو حامد الغزالى فى إحيائه (٢/٤١) : « لا تنكحوا القرابة القريبة ، فإن الولد يُخلق ضاوياً » . قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء : « قال ابن الصلاح : لم أجد له أصلاً معتمداً . قلت : إنما يُعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب « قد أضويتم ، فانكحوا فى النوابغ » رواه إبراهيم الحربى فى غريب الحديث . قال الشوكانى فى (الفوائد المجموعة ص ١٣١) : « ليس بمرفوع » .

(٣) ذكرهما أبو حيان التوحيدى فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، ولم يعزهما لأحد . وانظر أيضاً « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهانى .

فَتَىً لم تلدْهُ بنْتُ عَمٍّ قريبة   فيضْوَى وقد يَضْوى سَلِيلُ الأقَارِب[1]

وآخر يبتعد عن بنت عمه فى الزواج رغم حُبِّه لها ، ويقول :

تَجَاوزْتُ بنتَ العَمِّ وهْىَ حَبيبةٌ   مَخَافَةَ أنْ يَضْوىَ علىَّ سَلِيلُها

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ۝١١ ﴾ [فاطر] عملية حَمْل الأنثى تتم نتيجة الالتقاء بين الذكر والأنثى تحت مظلة الشرع ومنهج الله ، وللعلماء كلام طويل فى مسألة حمل المرأة ، أهى المسئولة عنه أم الرجل ، وأخيراً سمعنا من التحاليل التى أجرَوْهَا أنَّ الرجل هو المسئول عن ميكروب الذكورة أو الأنوثة ، أما المرأة فتحمل البويضة التى تستقبل هذا أو ذاك .

وعجيب أن تفطن المرأة العربية القديمة إلى نتائج العلم الحديث الآن ، وأن يكون لديها إلمامٌ وفَهْم لهذه المسألة ، فالمرأة البدوية التى كانت لا تنجب إلا البنات ، فغضب عليها زوجها ، وذهب فتزوَّج بأخرى لتنجب له الولد ، وهجر الأولى ، فأنشدت وقالت[2] :

مَا لأبى حَمْزَةَ لا يَأْتينَا   غَضْبانَ ألاَّ نَلِدَ البَنينَا

تَاللَّهِ مَا ذَاكَ فى أيدينَا   ونحن كالأرْضِ لغَارِسينَا

* نُعطى لَهُمْ مثْلَ الذى أُعْطينَا *

وعجيب أنْ تتكلم البدوية بما توصَّل إليه العلم الحديث فى القرن العشرين ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يثبت لنا أن الفطرة السليمة البعيدة عن الهوى قد تصل إلى حقائق الكون ، فسداد الرأى لا يجتمع

---

(١) هذا البيت للنابغة الذبيانى ، ولكن لفظه يختلف عما أورده الشيخ رحمه الله هنا :

فتى لم تلده بنت أم قريبة   فيضوى وقد يضوى رديد الأقارب

وقد ذكره الخالديان فى « الأشباه والنظائر » وعزواه إلى أعرابى يذكر ابنه بلفظ الشيخ إلا قوله « الأقارب » فهو عندهما القرائب .

(٢) ذكر هذه الأبيات مع اختلاف فى اللفظ ابن عبد ربه الأندلسى فى العقد الفريد ـ باب قولهم فى النوادر والمُلَح :

ما لأبى حمزة لا يأتينا   يظل فى البيت الذى يلينا

غضبان أن لا نلد البَنينا   وإنما نأخذ ما أعطينا

وهوى النفس ؛ لذلك قالوا : آفة الرأى الهوى ، ومن ذلك ما رُوِى عن سيدنا عمر من أن القرآن كان ينزل على وَفْق ما يراه ، وما ذاك إلا لسلامة فطرته .

وقوله : ﴿وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ (١١)﴾[فاطر] هذه مراحل تمر بها المرأة ، أولاً ، تزوجت ثم حملت ، ثم وضعتْ حملها ، وهذه كلها مراحل السلامة ، ولم يذكر - سبحانه وتعالى - ما يطرأ على الحمل من عطب ، فقد تحمل الأم ويسقط جنينها ولا تضعه .

والإعجاز الذى يصاحب عملية الحمل أن الدم الذى ينزل من المرأة حال الدورة الشهرية يتحول عندما تحمل إلى غذاء للجنين ، فكأن هذا الدم ليس رزقاً لها ، بل رزق ولدها إنْ قُدِّر لها الحمل ، وإن لم يُقدَّر لها حمل نزل منها دون أن تستفيد منه بشىء .

والعجيب أن هذا الدم يكفى الجنين الواحد ، ويكفى الاثنين والثلاثة ، والأكثر من ذلك ، وأخيراً سمعنا عن المرأة التى ولدتْ سبعة ، ومع ذلك كانت بحالة جيدة يعنى : لم ينقص من وزنها شىء ، وكأن الخالق عز وجلّ يذكّرنا قبل أنْ تحملوا هَمَّ القوت والأرزاق انظروا ما فعل الله بكم وأنتم فى بطون أمهاتكم ، فلكُلٍّ منكم رزق لا يتعدَّاه ولا يُخطئه .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « طعام الواحد يكفى الاثنين ، وطعام الاثنين يكفى الثلاثة »[(١)] .

ومع تقدُّم العلم الآن لم يستطيعوا تحديد موعد الولادة بشكل قاطع ، وستبقى هذه اللحظة فى علم الله ﴿وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ (١١)﴾[فاطر]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٠٧/٢) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٥٩) كتاب الأشربة ، وابن ماجه فى سننه (٣٢٥٤) من حديث جابر بن عبد الله .

لماذا ؟ لأننا نعرف نعم مدة الحمل ، لكن لا نعرف على وجه التحديد متى التصق (الزيجوت) فى الرحم ؛ لذلك فإن أطباء الولادة دائماً ما يقولون ستضع الحامل بين كذا وكذا من الأيام .

إذن : لحظة الولادة أشبه ما تكون فى خفائها بلحظة الموت لا يعلمها إلا الله ، ومعنى يعلمها يعنى : يعلمها بكل ما يحيط بها من ملابسات وأحداث .

وبعد أنْ تضع المرأةُ حملها تتحول إلى مرضعة وحاضنة فيُجرى لها الخالق سبحانه رِزْق ولدها لترضعه دون أنّ يأخذ من رزقها شيئاً ، لأن إمداد الله لها مستمر ، والشيء ينقص إنْ أُخذ منه دون إمداد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ (١١) ﴾ [فاطر] يُعمَّر يعنى : يمد الله فى عمره ، وعندنا فى اللغة أفعال ملازمة للبناء للمجهول ، فمثلاً نقول : زُكم فلان لأنه لم يجلب لنفسه الزكام ، كذلك نقول : فلا عُمِّر . هو لم يُعمِّر نفسه ، إنما عمَّره الله ، لذلك جاء بصيغة اسم المفعول مُعَمَّر ، والمُعمَّر يعنى : طويل العمر .

وهذا من المواضع التى وقف عندها المستشرقون معترضين كالعادة ، بسبب جهلهم باللغة العربية وأساليبها ، قالوا : كيف يُعمَّر بالفعل ، فيعيش مائة سنة مثلاً ثم ينقص من عمره ؟ نقول : هم معذورون ؛ لأنهم لا يعلمون أن فى اللغة ضميراً ومرجعاً للضمير .

فتقول مثلاً : قابلتُ فلاناً فأكرمتُه ، فالهاء فى أكرمته تعود على فلان هذا ، وتقول : تصدقتُ بدرهم ونصفه . فهل يعنى هذا أنك تصدقتَ بدرهم ، ثم أعدته ثانية ونصَّفته ؟ لا إنما المعنى : تصدقت بدرهم ونصف درهم مثله ، فمرة يعود الضمير على ذات واحدة ،

ومرة يعود على واحد من مثله ، كما فى : تصدقت بدرهم ونصفه .

والإنسان له ذات وله صفات ، ذاته هى قوام تكوينه ، وصفاته ما يطرأ على الذات من أوصاف ، فكَوْنه معمَّراً يعنى بلغ سناً كبيرة ، وكما يعود الضمير على مثل الأول أو على بعض مثله ، كذلك يعود على بعض ذاته ، فالمعمَّر ذاتٌ ثبت لها التعمير ، فعلامَ يعود الضمير فى ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴿١١﴾ ﴾[فاطر] صحيح حينما يصل إلى مائة سنة لا نستطيع أنْ نُميته فى سنِّ العشرين مثلاً .

إذن : أعد الضمير على الذات دون الصفة ، وما يُعمَّر من مُعمَّر ، ولا ينقص من ذاته ، فالذات لم يثبت لها التعمير إلا بإذن الله ، فيصير المعنى مثل : تصدَّقْتُ بدرهم ونصفه .

والحق سبحانه حدَّثنا عن التعمير عندما تكلم عن اليهود : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴿١١١﴾ ﴾ [البقرة]

وقالوا : ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴿٨٠﴾ ﴾ [البقرة]

فردَّ الله عليهم : إنْ كنتم ضمنتم الجنة ، وأنه لا يأخذها منكم أحد ، فتمنَّوْا الموت الذى يوصلكم إليها : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [البقرة]

ثم حكم الله عليهم ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[البقرة]

فمعنى ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴿١١﴾ ﴾[فاطر] يعنى : من عمر ذات لم يثبت لها التعمير إلا بإذن الله .

وقوله ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴿١١﴾﴾[فاطر] أى : فى اللوح المحفوظ ، فكلُّ ما يحدث فى الأعمار وفى فترات الحمل والوضع من الإنقاص أو الزيادة ، كله مُسطَّر معلوم فى اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾[فاطر] فإنْ كان صعباً عليكم وعلى فهمكم فهو يسيرٌ وسهلٌ على الله سبحانه.

ألاَ ترى لسيدنا زكريا عليه السلام وهو يدعو الله أنْ يرزقه الولد الصالح الذى يرث النبوة من بعده ، مع أنه بلغ من الكبَر عتياً وامرأته عاقر ، وأىّ ذرية بعد هذا السِّن خاصةً إنْ كانت الزوجةَ عاقراً ؟ لكن ، إنْ كانت بقوانين الله ، فالأمر سهل ميسور .

واقرأ :﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم]

إذن : لا تقسْ المسألة على قدرتك وقانونك ؛ لأن الفعل يُنسَب إلى الله ، لا إلى بشر .

كذلك سيدنا موسى - عليه السلام - لما تبعه فرعون بجنوده حتى حاصره وضيَّق عليه الخناق حتى قال أتباع موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء] ولم لا والبحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم ، فقال موسى قولةَ الواثق بربه وقدرته التى لا حدودَ لها ﴿قَالَ كَلَّا ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء] يعنى : لن يدركونا ، قالها بما لديه من رصيد الثقة بالله ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء] فجاءه الفرج لتوِّه ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء]

رأى موسى طريقاً يابساً يشقُّ البحر ، فعبر هو وقومه إلى أن